بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

غزوات وفتوحات عبر ودروس

مقدمـة

إن الأمة الإسلامية مكلفة بتحقيق العدالة في الأرض، وهذا التكليف يوجب على المسلمين أن يكافحوا الظلم والبغي حيث كان ويزيلوا أسبابه، لا ليملكوا الأرض ويستولوا على المرافق، ويستذلوا الأنفس بل لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كل غرض. قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾(البقرة/244). وقال أيضا: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾(الحج/78).

وسبيل الله هو سبيل الحق، فكل قتال لأجل الدين والدفاع عنه هو: في سبيل الله وكل قتال لدفع الظلم ومعاونة المظلومين ضد الظالمين ونصرة الحق هو من القتال في سبيل الله، وكل طريق للوصول إلى الحق أو حمايته أو الدفاع عنه في سبيل الله سبحانه وتعالى. فالإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبدا لتحقيق كلمة الله في الأرض أي لتحقيق النظام الصالح الذي يسعد البشرية، والأمة الإسلامية منتدبة لرفع الظلم عن الأفراد والجماعات في أقطار الأرض كافة بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم: قال جلّ ذكره مخاطبا المسلمين: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾(البقرة/143). أي لتكونوا أيها المسلمون شهداء على الناس في تقصيرهم وغلوهم، فتقوموا بإصلاح عوجهم .

وليس في هذا الأمر إظهار فضل أمة على أخرى أو جرح كبرياء أمة من الأمم، لأن الله الذي وضع هذا الانتداب لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ولا وقفا على جنس من الأجناس، ولكنه جعله للجماعة التي تدين بأصوله مهما كان لون هذه الجماعة أو جنسيتها، ونصوص القرآن الكريم واضحة في أن الإسلام دين عام للناس كافة. قال الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم:﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله

وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون"(الأعراف/158). ولهذا نرى النبي صلى الله عليه وسلم أرسل سفراءه إلى ثمانية ملوك وأمراء مجاورين لجزيرة العرب يحملون كتبا منه يدعوهم فيها إلى الإسلام، فرفض هؤلاء الحكام دعوته، فمنهم من قتل سفيره ومنهم من مزق تلك الكتب مع تهديد الرسول الذي يحملها، فكان لزاما على المسلمين أن يحاربوا هؤلاء بعد أن تبين أنهم قتلوا الدعاة وفتنوا أتباعهم وساسوهم بسياسة الظلم .

يقول الدكتور نجيب الأرمتازي في كتابه " الشرع الدولي في الإسلام " ولما أخذ العرب أهبتهم لمقاتلة فارس والروم اللتان كانتا تقتسمان أكثر بقاع العالم المعروفة يومئذ ولكنهما مضمحلتان اضمحلالا سياسيا واجتماعيا، فقد أنهكتهما الحروب المتتابعة، ولم يخرجا منها وفيهما بقية، وكانت سيرة الدولتين سيرة ظلم وجبروت تستأصل الرعية وتفدحها بالمؤن المجحفة، وتميت ما في قلوب أبنائها من حب الوطن ومناصحة الحكام. وكان أهلهما يعتقدون عقائد مزخرفة مشوهة ، فانقلبت الزراداشتية دين فارس الموروث إلى مجوسية سحرية قائمة على أساس الجور والبغي مكروهة منبوذة في السر، وغشيت النصرانية في الشرق ببهارج الوثنية، وفسدت بالمناظرات الجدلية التي ورثتها من متأخري اليونان فافترقت المجوسية والنصرانية إلى فرق كبرى تتوارث العداوة والبغضاء ويعذب بعضها بأيدي بعض، كل ذلك مما أفاد الفاتحين القادمين، فلم يلق الإسلام في مكان ما مقاومة شعبية ولم يكن يعبأ أهل العراق إذا بذلوا الخراج إلى بيزنطة أو إلى المدائن أو المدينة وإذا خيروا بين العرب والفرس فلا جرم أن الأولين كانوا أبر وأنقى وأعدل وأرحم وشهادة بعض علماء الغرب في الفتح الإسلامي تعزز هذه الحقيقة. قال الدكتور"جوستاف لوبون" في كتابه حضارة العرب: "سيرى القارئ حيث يبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أدياتهم، فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية إلى الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى".

وقال: " ميشود " في كتابه تاريخ الحروب الصليبية: " إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب وقد حرّم قتل الرهبان على الخصوص، لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين

فتح القدس، وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها ". وجاء في كتاب "العالم الإسلامي الجديد ": " ولم يبتغ العرب من فتوحهم إحراز المغانم ودرس المعالم بل كانوا ضد ذلك: أبناء أمة كريمة تحب العلم والتعلم، وتجل ميراث الحضارات السابقة. وقد تشابكت بين الغالبين والمغلوبين أرحام المصاهرة وعقدت قلوبهما على الأخوة الدينية، فلم يلبث الفريقان أن امتزج بعضهما ببعض ليخرجا للناس حضارة جديدة، هي حضارة الإسلام التي أحيت آثار اليونان والفرس والروم وطبعتها بطابع العزيمة العربية والعبقرية الإسلامية ". هذه هي أقوال بعض المؤرخين والكتّاب في الفتح الإسلامي، وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في التاريخ الديني والاجتماعي لأمة من أمم الأرض مما يشهد على أن القرآن له تأثير في الجماعات البشرية مما لا يوجد لكتاب قبله وهو بذلك يعطي البرهان الواضح على أنه وحي إلهي: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(فصلت/42).

فهؤلاء هم المؤمنون حقا، المؤمنون الذين اشترى الله منهم فباعوا. وإنها لبيعة رهيبة ولكنها في عنق كل مؤمن قادر عليها لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه. قال تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(التوبة/111). حقيقة هذه البيعة، أو هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة، أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد لهم منها شيء، لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله، لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا – كلا– إنها صفقة مشتراة لشاريها أن يتصرف بها كما شاء وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يلتفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال والنهاية: هي النصر أو الاستشهاد. فمن بايع هذه البيعة ووفّى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف المؤمن وتتمثل فيه حقيقة الإيمان وإلاّ فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق. ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم، ولم تكن مجرد معان يتأملونها بأذهانهم أو يحسونها مجردة في مشاعرهم، كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها لتحويلها

إلى حركة منظورة لا إلى صورة متأمّلة.. هكذا أدركها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في بيعة العقبة الثانية.

قال محمد بن كعب القرضي وغيره: " قال عبد الله بن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم (يعني ليلة العقبة): " اشترط لربك ولنفسك ما شئت". فقال: عليه الصلاة والسلام: « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال صلى الله عليه وسلم: الجنة. قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ". وإذ يشير شيخنا الهمام بن عليوة رحمه الله إلى هذه المبايعة بقوله :

" نحن وأهل بدر في العتق سواء **** ما بي بهم وما بهم بي "

يعلن أن الحق لابد أن ينطلق في طريقه ليحرر البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده، ولابد أن يقف له الطاغوت في الطريق ولابد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا. ومادام في الأرض كفر ومادام في الأرض باطل ومادامت في الأرض عبودية لغير الله تذل كرامة الإنسان فالجهاد في سبيل الله ماض والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء وإلا فليس بالإيمان قال عليه الصلاة والسلام: « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق » رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.

فالجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاع إلى القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال، والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة تسير خلف قافلة بدر المباركة في كل زمان وفي كل مكان، ولن تخل الأرض من وجودهم والحمد لله لأنهم هم أمان أهل الأرض وهم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم.

الشيخ الطاهر بدوي